

الكامل للمبرد

بمقام
الأستاذ البرهيم الرباعي

تمهيد :
خرجت الدولة العربية من العصر العباسي الأول
الذي بدأ بظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وانتهى
بتولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ هـ لتستقبل العصر
العباسي الثاني الذي انتهى باستقرار الدولة البويهية في
بغداد سنة ٣٣٤ هـ :

(*) مراتب النحويين (النحاة) لأبي الطيب عبد الواحد بن علي (بعد ٣٥٠ هـ) (ص ١٣٦) - طبقات النحويين البصريين للسيرافي
أبي سعيد حسن بن عبدالله (٣٦٨ هـ) (ص ٩٦) - طبقات النحويين واللغويين للزبيدي أبي بكر محمد بن الحسين (٣٧٩ هـ) (٧٠ - ٨٠) -
معجم الشعراء للمرزباني محمد بن عمران (٣٨٤ هـ) (ص ٤٤٩ - ٤٥٠) - حلية الأدباء (نقل عنه ابن النديم) - فهرس العلوم لابن النديم
محمد بن اسحاق (٣٨٥ هـ) (ص ٥٩ - ٦٠) - جمهرة أنساب العرب لابن حزم أبي محمد علي بن أحمد (٤٥٦ هـ) (ص ٣٧٧) - تاريخ
بغداد للخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي (٤٦٣ هـ) (ص ٣ : ٣٨٧) - سمط اللآلئ لأبي عبيد البكري عبدالله بن عبد العزيز
(٤٨٧ هـ) (ص ٣٤٧) - الفصوص لصاعد بن الحسن الربيعي (٤١٧ هـ) نقل عنه ابن حجر في لسان الميزان - الأنساب للسمعاني أبي سعد
عبد الكريم بن محمد (٥٦٢ هـ) (و : ١١٦ أ) - نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن الأنباري أبي البركات عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧ هـ)
(ص ٢٧٩ - ٢٩٣) - المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي (٥٩٧ هـ) (سنة ٢٨٥) - الألقاب لابن الجوزي أيضاً ،
نقل عنه ابن خلكان - ارشاد الأريب - معجم الأدباء - لياقوت ابن عبدالله الرومي (٦٢٦ هـ) (١٩ : ١١١ - ١٢٢) - المختضب لياقوت
أيضاً (ص ٧٣) - الكامل في التاريخ لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد (٦٣٠ هـ) (سنة ٢٨٤ هـ) - اللباب في معرفة الأنساب لابن الأثير
أيضاً (١ : ١٩٧) المقتبس - لأبي عبيدالله محمد بن عمران (نقل عنه القفطي) - أنباء الرواء للقفطي أبي الحسن علي بن يوسف (٦٤٦ هـ)
(٣ : ٢٤١ - ٢٥٢) - وفيات الأعيان لابن خلكان أحمد بن محمد (٦٨١ هـ) (١ : ٤٨٥ - ٤٩٧) - المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا
إسماعيل بن علي (٧٣٢ هـ) (٢ : ٥٨) - تلخيص ابن مكتوم أبي محمد أحمد بن عبد القادر (٧٤٩ هـ) (٢٣٨ - ٢٣٩) - إشارة التعيين
إلى تراجم النحاة للغويين لأبي المحاسن عبد الباقي بن علي (القرن الثامن) (ص ٥٣) - مسالك الأبصار للمرعي أحمد بن يحيى (٧٤٧ هـ)
(ق ٤ ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٩٠) - مرآة الجنان للياقوتى عبدالله بن أسعد (٧٦٨ هـ) (٢ : ٢١٠ - ٢٦٣) - البداية والنهاية لابن كثير
إسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ) (١١ : ٩٧ - ٨٠) - غاية النهاية لابن الجزري محمد بن محمد (٨٣٣ هـ) (٢ : ٢٨٠) - طبقات ابن قاضي
شبهة تقى الدين بن أحمد (٨٥١ هـ) (١ : ١٤٦ - ١٥١) - لسان الميزان لابن حجر أحمد بن علي (٨٥٢ هـ) (٥ : ٤٣٠ - ٤٣٢) -
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جمال الدين يوسف (١١٦ - ١١٧) - المزهر للسيوطي أيضاً (٢ : ٤٠٨ و ٤١٩ و ٤٢٧ و ٤٦٤) -
طبقات المفسرين للداودي محمد بن علي ، تلميذ السيوطي (القرن العاشر) (٢٩٥ - ٢٩٧) - شذرات الذهب لابن المهدي عبد الحى بن أحمد
(١٠٨٩ هـ) (٢ : ١٩٠ - ١٩١) - روضات الجنات لمحمد باقر (القرن الثالث عشر) (ص ٦٠) - كشف الظنون لحاجي خليفة .

أبو العباس المبرد :

وقبل أن نمضى فى الحديث عن أبى العباس المبرد نحب أن نشير إلى أنه كان ثمة رأيان فى النحو يسودان ، تخضعهما مدرستان هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، وكما شغلت هاتان المدرستان بالجدل فى قواعد النحو وأحكامه وشروطه ، شغل بعدهما مؤلفون باثبات هذا الخلاف والحكم فيه ، غير أن هذا الخلاف أخذ فى الضعف منذ أواخر القرن الثالث الهجرى بعد أن بلغ أشده فى العصر العباسى الأول . ومن هؤلاء المؤلفين كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانبارى (٥٧٧ هـ) الذى ألف كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين » جمع فيه لإحدى وعشرين ومائة مسألة خلافية ، ثم أبو البقاء العكبرى عبد الله بن الحسين (٦١٦ هـ) الذى ألف كتاب « التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » . ثم جاء جلال الدين السيوطى عبد الرحمن بن أبى بكر (٩١١ هـ) فخلص ما فى هذين الكتابين وضمنهما الجزء الثانى من كتابه « الأشباه والنظائر » ولقد اختار فيه اثنتين ومائة مسألة .

ونحب أن نشير إلى أن أبا العباس ثعلباً كان آخر أساتذة المدرسة الكوفية المرموقين ، وأن أبا العباس المبرد كان آخر أساتذة المدرسة البصرية الملحوظين :

وإلى ثمالة الأزدي ينتمى المبرد . وعلى هذا يسوق النسابون نسبه فيقولون : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليم بن سعد بن عبد الله ابن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف - وهو ثمالة - بن أسلم بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد .

غير أنهم يختلفون فى ثلاثة جداوله ، هم : عمير وسليم وأسلم ، فيقول بعضهم « عميرة » مكان « عمير »

خرجت الدولة العربية من هذا العصر العباسى الأول بعد أن استوت لها علوم منها النحو والعروض ، وبعد أن اتضح الفقه واستقامت مذاهبه الأربعة ، وبعد أن تميز الشعر بوضوح طريقته ، وبعد أن عادت الطرق لكتب السير والمغازى والفتوح ، وبعد أن أفادت اللغة من تراث الأمم القديمة مثل اليونان والفرس والهند .

خرجت الأمة العربية من هذا العصر بزاد كبير من كتب فى الأدب واللغة والنحو والنسب والأشعار والأخبار والأمثال تعد بالآلاف ، وإن كانت الأيام قد عشت بها فلم يبق منها إلا عشرات ، لتستقبل عصراً اتسعت عليها فيه الدنيا بحضارتها فاتسعت له عقولها تعى ، وألسنتها تنطق ، وأيديها تخط . غير أن ثمة ظاهرتين نلاحظهما فى هذا العصر العباسى الثانى :

أولاهما : تخلف علم النحو . فقد عاش النحاة فيه على كتاب سيبويه ولم يقووا على خلق كتاب يقوم مقامه ، وكل ما كان لهم فى ذلك الميدان تعليقات ومختصرات حول هذا الكتاب .

والظاهرة الثانية : تخلف علم اللغة ، وكما شدة كتاب سيبويه النحاة شدة كتاب العين للخليل اللغويين ، هذا إذا استثنينا الهروى (٢٥٥ هـ) الذى ألف معجماً بدأه بحرف الجيم وجعله على ترتيب الخليل .

ولعل هذه الظاهرة وتلك هما اللتان جعلتا النحاة واللغويين يمزجون بين النحو واللغة والأدب ، فكان النحوى أديباً ولغوياً وكان اللغوى نحوياً وأديباً .

وإن كنا لا ننكر على لغويى هذا العصر تمهيدهم السبيل لمن أتى بعدهم من لغويى العصر العباسى الثالث بما ألفوا من كتب أقرب شىء إلى المعاجم كانت مادة لها ، ومن هؤلاء اللغويين فى هذا العصر رجلاً الذى سنحدثك عنه : أبو العباس المبرد .

كما ثبت بعضهم « سليمان » مكان « سليم » كما يضيف بعضهم « أحجن » بين « أسلم » و « كعب » .
ثم نراهم يختلفون رابعة فيمن هو « ثمالة » أهو عوف بن أسلم ، كما قدمنا ، أم هو أسلم أبوه ؟

وينقل ابن خلكان عن كتاب « الاشتقاق » للمبرد سبب تسمية تلك القبيلة بـ « ثمالة » ، وابن خلكان أحد هؤلاء الذين يقولون بأن « ثمالة » هو عوف بن أسلم ، ثم يمتضى بعد هذا ينقل عن المبرد من كتابه « الاشتقاق » رأيه في سبب تلقيب « ثمالة » بهذا اللقب . فان صح أن ابن خلكان حين نقل الثانية من كتاب « الاشتقاق » للمبرد نقل الأولى . كان في هذا ما يرجح قول القائلين أن « ثمالة » هو عوف بن أسلم ، وإلا فلا ترجيح .

وسبب هذا اللقب ، كما يقول المبرد وينقل عنه ابن خلكان ، هو أنهم شهدوا حرباً في فيها أكثرهم قتيلا الناس : ما بقى منهم إلا « ثمالة » . و « ثمالة » : البقية اليسيرة .
والغريب ألا يقع ابن دريد (٢٣١ هـ) حين ألف هو الآخر كتابه « الاشتقاق » على هذا الرأي السابق فراه لا يشير إليه وهو يذكر « ثمالة » وسبب تلقيبهم بهذا اللقب ، ويذكر رأياً آخر فيقول : « و « ثمالة » : رغبة اللبن ، والجمع ثمال » .

وعلى أية حال فقد تميزت « ثمالة » بشيء من بين أجداد المبرد ، ولعل تميزها هذا هو الذي جعل المبرد يقف عندها وينتمى إليها ، ثم يلج في هذا الانتماء ليشتيع فيصنع أبياتاً من الشعر يهجو بها نفسه ذاكراً هذا الحى « ثمالة » ، فتشتيع الأبيات ويحصل المبرد على ما يجب من اشتهاه بهذه القبيلة .

وهذه الأبيات كما تنسب للمبرد على هذا القول الذى يقوله ابن خلكان ، تنسب أيضاً لعبد الصمد بن المعذل برواية المبرد عنه ، ولعل رواية المبرد لها بغية لإثبات نسبه في هذه القبيلة هى التى حركت هذا الشك في نسبتها إليه ، والأبيات هى :

سألنا عن « ثمالة » كل حى فقال القائلون ومن « ثمالة » قتل محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جاهله فقال لى المبرد خل عنى فقوى معشر فيهم نذاله و « المبرد » لقب « محمد » مختلف فى سببه هو الآخر مختلف فى ضبطه . فيروى ابن خلكان عن ابن الجوزى فى كتابه « الألقاب » يقول : سئل المبرد : لم لقبت بهذا اللقب ؟ فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب إليه فدخلت إلى أبى حاتم السجستاني ، فجاء رسول الوالى يطلبنى ، فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا - يعنى غلا فى زميلة ^(١) . فدخلت فيه وغطى رأسه ثم خرج إلى الرسول وقال : ليس عندى . فقال : أخبرتك أنه دخل إليك . فقال : ادخل الدار وقتشها . فدخل فطاف كل موضع فى الدار ولم يفتن لغلاف الزميلة . ثم خرج ، فجعل أبو حاتم يصفق وينادى على الزميلة : المبرد المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به .

ومثل هذا القول يرويه القفطى عن ابن عمران فى كتابه « المقتبس » .

ويسوق ياقوت رأياً آخر فيقول : وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازنى كتاب « الألف واللام » سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب . فقال له المازنى : قم فأنت المبرد - بكسر الراء - أى المثبت للحق . فحرفه الكوفيين وفتحوا الراء .

وينقل هذا رأى السيوطى فى كتابه « البغية » ويقتصر عليه ، كما يشير إليه ابن خلكان إشارة عابرة بعد ما ذكر رأى الأول الذى سقناه قبل فيقول : وقيل إن الذى لقبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازنى .

(١) الزميلة : التى يبرد فيها الماء .

غير أن ابن خلكان لا يقف عند هذه بل يشير إلى رأى أو آراء أخرى يكتفى بالتلميح إليها فيقول : وقيل غير ذلك .

فنحن الآن بين رأيين فى سبب تلقيبه لا نكاد نقطع بأحدهما بعد أن لم يقطع بهما من سبقوا ، ولكننا نملك أن نقطع بأن ضبطه : المبرد ، بكسر الراء المشددة ، وأن فتحها من صنع الكوفيين لحاجة فى أنفسهم . ولقد أثر عن المبرد أنه كان يقول : برد الله من بردنى

وهذا الرجل الذى اختلف الناس فيما عيس نسبه ولقبه اختلفوا فيما عيس مولده ووفاته . ويذهب أكثرهم إلى أن مولده كان سنة عشر ومائتين (٢١٠ هـ) ويزيد ابن خلكان فيجعل ولادته يوم الاثنين عيد الأضحى من تلك السنة . ومن المؤرخين من يجعل مولده سنة سبع ومائتين (٢٠٧ هـ) ومنهم من يجعله سنة ست عشرة ومائتين ، ومنهم من يجعلها سنة عشرين ومائتين .

وكما اختلفوا فى مولده نراهم يختلفون فى وفاته ، فيذهب أكثرهم إلى أن وفاته كانت فى سنة خمس وثمانين ومائتين (٢٨٥ هـ) . ويزيد بعضهم فيقول : إن هذه الوفاة كانت يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة .

ومنهم من يجعل وفاته فى سنة ست وثمانين ومائتين (٢٨٦ هـ) فى ذى الحجة من تلك السنة . ومنهم من يجعلها فى سنة أربع وثمانين ومائتين (٢٨٤ هـ) وفى شوال من تلك السنة .

غير أن الخلاف لا ينتهى عند هذا ، فلقد نقل القفطى نقولا مضطربة لم يمل فيها رأياً .

فراه يقول : وقال عبدالله بن سعد القطربلى فى تاريخه : مات أبو العباس المبرد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة — أى إن مولده كان سنة ست ومائتين على التقريب — ويقول : قال أبو على إسماعيل ابن محمد الصفار : مات أبو العباس المبرد فى ذى الحجة

سنة خمس وثمانين ومائتين . وذكر غيرهم . فى ذى القعدة وقال غيرهم : إنه نيف على التسعين — وعلى هذا فيكون مولده نحو سنة خمس وتسعين ومائة (١٩٥ هـ) .

ثم يعود فيقول : وكان مولد أبي العباس يوم الاثنين فى ذى الحجة ليلة الأضحى سنة عشرين ومائتين وتوفى يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائتين .

ثم تمضى فيقول : قال أبو سعيد : وكان مولده فيما أخبرنا به أبو بكر بن السراج وأبو على الصفار فى سنة عشر ومائتين . ومات سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة . وقيل : مولده سنة سبع ومائتين .

والنص على هذا فيه استحالة . وظاهر أنه مضطرب تقدماً وتأخيراً . وهو لو أقيم على هذا الوجه : « وكان مولده فيما أخبرنا به أبو بكر بن السراج وأبو على الصفار فى سنة عشر ومائتين . وقيل مولده فى سنة تسع ومائتين ومات سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة » صح وبرئ من الاستحالة .

فها أنت ترى أن مولد أبي العباس المبرد كان بين سنتى ١٩٥ هـ وسنة ٢٢٠ هـ ، وأن وفاته كانت بين سنتى ٢٨٤ هـ وسنة ٢٨٦ هـ .

والشئ المقطوع به بعد هذا أنه مات بالكوفة وبمقابرها دفن ، وصلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضى حين مات ، ورثاه أبو بكر بن العلاف بهذه الأبيات :

ذهب المبرد وانقضت أيامه
وليسذهبن إثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصفه
خربا وباقي النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا
للدهر أنفسكم على ما يسلب

وتزودوا عن ثعلب فبكأس ما

شرب المبرد عن قريب يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه

ان كانت الأنفاس مما يكتب

وكما كان مولد المبرد بالبصرة كذلك كانت
نشأته وبها بنى على ابنة الخفصى المغمسى.

وبالبصرة أخذ عن شيوخها أبي عثمان بكر بن
محمد المازني (٢٤٩ هـ) وأبي حاتم سهل بن محمد
السجستاني (٢٤٨ هـ) وأبي عمر صالح بن اسحاق
الجرمي (٢٢٥ هـ).

ويقول القفطى : قرأ المبرد كتاب سيدييه على
الجرمي ، ثم توفي الجرمي فابتدأ قراءته على المازني .

ويروى لإبراهيم بن محمد المسمعى ، وكان من
معاصري المبرد بالبصرة ، يقول : رأينا محمد بن يزيد
وهو حدث السن يتصدر فى حلقة أبي عثمان المازني يقرأ
عليه كتاب سيدييه ، وأبو عثمان فى تلك الحلقة كأحد
من فيها .

ويقول أبو الطيب محمد بن عبدالله الكاتب . كنت
يوماً عند أبي حاتم السجستاني إذ أتاه شاب من أهل
نيسابور فقال : يا أبا حاتم ، إني قدمت بلدكم بلد العلم
والعلماء وأنت شيخ هذه المدينة وقد أحبيت أن أقرأ
عليك كتاب سيدييه . فقال : الدين النصيحة ، إن
أردت أن تنتفع بما تقرؤه فاقرأ على هذا الغلام محمد
ابن يزيد .

فتلك التى رويت على لسان المسمعى ، وهذه التى
يقصها أبو الطيب ، تفيد أن المبرد نبغ صغيراً واستحق
أن يكون شيخاً يقرأ عليه ويؤخذ عنه . ولعلك تذكر
ذلك الخبر الذى مر بك فى صدر هذا المقال عند
الحديث هلى سبب تلقيب شيخه المازني له بالمبرد —
أى المثبت للحق — وذلك حين أجابه عن دقائق كتابه
« الألف واللام » فأحسن الجواب .

وعلى الرغم من نبوغ المبرد وشهادة أستاذه له
بالفوق فقد ظل محجوباً به إلى أن حمل إلى المتوكل
بسر من رأى ، وكان قد اتخذها المتوكل مقراً لخلافته
بعد أن أمضى فى دمشق شهرين ، وذلك حين ولى سنة
٢٣٢ هـ . وما كان هذا الحمل عن ذبوع صيت ولكن
كان بسبب صداقة يزيد بن محمد المهلبى للمبرد ، فهو
الذى دل المتوكل عليه حين اختلف والفتح بن خاقان .

فى قراءة هذه الآية من القرآن الكريم « وما يشعركم أنها
إذا جاءت لا يؤمنون » أهى بفتح الهزرة فى « أنها » أم
بكسر ها ، وتحاكما إليه — أعنى إلى يزيد بن محمد
المهلبى ، وكان صديقاً للمبرد . فقال للخليفة المتوكل :
ما أعرف الفرق بينهما وما رأيت أعجب من أن يكون
باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ! فقال المتوكل :
فليس ها هنا من يسأل عن هذا ؟ فقال : ما أعرف
أحدًا يتقدم فى بالبصرة يعرف بالمبرد . فقال المتوكل :
ينبغى أن يشخص .

ودخل المبرد سر من رأى ، سنة ست وأربعين
وماثنين وحكم بين المتوكل والفتح ونال جائزة المتوكل
وبقى فى بلاطه بسر من رأى إلى أن قتل المتوكل سنة
٢٤٧ هـ .

وبعد مقتل المتوكل ترك المبرد سر من رأى ،
قاصداً بغداد ، حيث كرسى الخلافة ، ولم يعد إلى
البصرة ، فقد كان لا يزال بها شيخاه : المازني
والسجستاني . ثم هو قد جرب حياة العواصم وما فيها من
مجالات للذبوع الاسم وارتفاع الصيت .

وكان ببغداد نِدُّ للمبرد ، هو أبو العباس أحمد بن
بجي ثعلب . وما يسوقه المؤرخون عن حياة الرجلين
يكاد يشير إلى أنهما عاشا — أعنى المبرد و ثعلب — من
قبل دخول المبرد إلى بغداد لا يعرف أحدهما الآخر
ولا يسمع به .

ولنفسح للقفطى يحدثنا حديث ذلك ، يقول
القفطى : ولما قتل المتوكل بسر من رأى ، دخل المبرد

إلى بغداد . فقدم بلداً لا عهد له بأهله . فاختل وأدركته الحاجة . فتوخى شهود صلاة الجمعة . فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفتحه السؤال ليتسبب له القول ، فلم يكن عند من حضر علم . فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ويوهم بذلك أنه قد سئل . فصارت حوله حلقة عظيمة وأبو العباس يصل في ذلك كلامه .

فتشوّف أحمد بن يحيى ثعلب إلى الحلقة ، فلما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس المبرد أمر إبراهيم ابن السري الزجاج بالنهوض إليه وقال له : فُضّ حلقة هذا الرجل . فنهض الزجاج ونهض معه من حضر من أصحابه .

ويسأل الزجاج المبرد عن مسألة فيجيبه ، ثم يعود المبرد إلى الزجاج فيشككه في الجواب ، ثم يرتد يؤكده له ، والزجاج مبهوت . يفعل المبرد ذلك مع الزجاج في أربع عشرة مسألة سأل الزجاج عنها المبرد .

وحين رأى الزجاج ذلك التفت إلى أصحابه الذين نهضوا معه يقول لهم : عودوا إلى الشيخ - يعني ثعلبا - فلست مفارقاً هذا الرجل ، ولا بد لي من ملازمته والأخذ عنه .

فيعاتبه أصحابه ويقولون له : أتأخذ عن مجهول لا يعرف اسمه وتدع من شهر اسمه وعلمه ؟

وهكذا تؤكد تلك القصة ما ذهبت إليه من أن الرجلين - أعني المبرد وثعلبا - لم يكن أحدهما يعرف الآخر قبل أن يهبط المبرد ببغداد ، وأن المبرد لم يكن له اسم يعرف في بغداد قبل أن ينزلها .

وحين نزل المبرد ببغداد كانت الحرب بينه وبين ثعلب . وها أنت ذا قد أدركت كيف بدأت هذه الحرب . وإن كنت تحب أن تعرف كيف مضت على أشدها بينهما حتى أصبحت مضرب المثل ، فحسبك قول الشاعر :

كفى حزنا أنا جميعاً ببلدة
وتجمعنا في أرضها شر مشهد
نروح ونغدو لا تراور بيننا
وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا في بلدة والتقاونا
عسير كلقيا ثعلب والمبرد
وحق لثعلب أن يغضب ، فلقد دخل عليه المبرد بلده واحتل مكانه واستأثر بالسبق دونه وحسبه أن يسمع من حوله يرددون :

رأيت محمد بن يزيد يسمو
إلى الخيرات منقطع النظير
جليس خلائف وغدّي ملك
وأعلم من رأيت بكل أمر
وكان الشعر قد أودى فأحيا
أبو العباس دائر كل شعر
وينثر إن أجال الفكر دراً
وينثر لؤلؤاً من غير فكر
وقالوا ثعلب رجل عظيم
وأين النجم من شمس وبدر
وقالوا ثعلب يفتي ويملي
وأين الثعلبان من الهزير
وهذا في فعالك مستحيل

تشبهه جدولا وشلا ببحر

ولعلك أدركت كيف خسر ثعلب الجولة الأولى حين انصرف الزجاج عنه . ولقد أفاد المبرد من هذه فضم إليه الزجاج ضمة أخرى فجعل لا يقرئ أحداً كتاب سيوييه حتى يقرأه هذا المريد على إبراهيم الزجاج ، فكان ذلك أول ظهور الزجاج :

ثم لقد كان المبرد كما يصفه المؤرخون على غزارة أدب وكثرة حفظ وحسن إشارة وفصاحة لسان وبراعة بيان ، كما كان ملوكي المجالسة كريم المعاشرة بليغ

المكاتبة حلوا المخاطبة . له جودة خط وصحة قريحة وقرب لفهام ورجوح شرح وعذوبة منطق . امتاز من هذا كله بما لم يعرف لأحد سبقه ولا لأحد جاء بعده ، كما يقولون .

ويحكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلی ، وكان صديقاً للمبرد وثعلب ، يقول : قلت لأبي عبدالله الدينوري - نحن ثعلب - : لم يأتي ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال : لأن المبرد حسن العبارة حلوا الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان ، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعوا في محفل حكم للمبرد . ويروي السيرافي عن صاحب ثعلب هو أبو بكر ابن مجاهد ، فلقد سمعه يقول : ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمقدم ، ولقد فاتني منه علم كثير .

غير أن المبرد على هذا كان يعاب عليه حفظه لكثير من الأخبار بغير أسانيدھا في عصر كان لا يزال للأسانيد قدرها ولا تقبل الروايات دونها ، وهذا هو ما جعل الناس من حوله يتهمون به بالوضع فيما يرويه غير مسند .

ويروون أن قوماً تواضعوا على مسألة لا أصل لها لينظروا ماذا يجيب ، وكانوا قد شغلوا بتقطيع بيت من الشعر ، وهو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

واختلفوا فيما بينهم لم يعرفوا من أي بحر هو ، وتردد على أفواههم من تقطيعه « ق بعضنا » ، ثم حلا لم أن يذهبوا إلى المبرد ويسألوه عند تلك الكلمة التي امتزجت من بعض كلمة وكلمة ، ويقولوا له : ما القبعض عند العرب ؟ ويجيب المبرد : هو القطن ، وينشدھم في ذلك شعراً وهو :

— كأن سنامها حش القبعضا —

وانصرف عنه القوم يقول بعضهم لبعض : إن كان الجواب صحيحاً فهو عجب ، وإن كان مختلفاً على البديهة فهو أعجب .

وما أظن هذه تصح على رجل عالم يحرص على سلامته في بيئة تحتدم فيها الخصومة بينه وبين ند له هو ثعلب ، ثم إن هذه كتبه التي خلفها من بعده لا تلمس فيها أثراً لوضع .

وقبل أن أحدثك عن كتبه أحب أن أحدثك عن أخذوا عنه لتعرف كيف جمع علم الرجل الناس من حوله ، ولو كان علماً زائفاً لانقضوا من حوله ، فالمرخون يذكرون من تلامذته ومن أخذوا عنه :

- (١) نبطويه لإبراهيم بن محمد بن عرفة - (٢) الحلبي محمد بن أحمد بن إبراهيم - (٣) الصولي محمد ابن يحيى - (٤) الخرائطي محمد بن جعفر - (٥) الأشثاني عمر بن حسن بن مالك - (٦) ابن درستويه عبدالله بن جعفر - (٧) غلام ثعلب محمد بن عبد الواحد - (٨) ابن أبي الأزهر محمد بن زيد - (٩) ابن زياد أحمد بن محمد - (١٠) الصنفار إسماعيل بن محمد - (١١) الطوماري عيسى بن محمد - (١٢) الدينوري محمد بن مروان

وبعد فقد ترك المبرد ما يقرب من خمسين كتاباً تمثل ثقافته المختلفة ، فقد ألف في اللغة وفي النحو وفي الصرف وفي الشعر وفي البلاغة وفي علوم القرآن وفي الأدب وفي الأنساب وفي تراجم الرجال ، ولكل كتاب من هذه الكتب أصالته ، ولكل كتاب دقة موضوعه ، منه ما وقع لنا باسمه ونصه ، ومنها ما وقع لنا باسمه فقط . وها هي ذى كثير :

- (١) احتجاج القرآن - (٢) أدب الجاليس - (٣) أسماء الدواهي عند العرب - (٤) الاشتقاق . وقد نقل عنه ابن خلكان شيئاً عن ثماله التي ينتسب إليها المبرد . وهذا النقل يكشف لك عن موضوع الكتاب - (٥) الاعراب - (٦) اعراب القرآن - (٧) الأنواء

والأزمئة - (٨) البلاغة - (٩) التصريف - (١٠)
التعازى والمرأى . ومنه خطية بمكتبة الاسكوريال -
(١١) الجامع ، ولم يتمه ، - (١٢) الحث على الأدب
والصدق - (١٣) الحروف - (١٤) الحروف ومعانى
القرآن إلى طه - (١٥) الخط والمجاء - (١٦) الرد على
سيبويه - (١٧) الرسالة الكاملة - (١٨) رسالة في
الجواب على سؤال وجهه إليه الواثق بشأن الشعر والنثر .
ومنها خطية بمكتبة ميونخ وأخرى في برلين .

(١٩) الروضة . وقد نقل عنه ابن خلكان شيئاً
يتصل بشعر الحسن بن هانىء . كما تحدث عنه البغدادى
فى كتابه « تاريخ بغداد » فقال نقلاً عن ابن طومار ،
يقول : كنت عند محمد بن نصير بن بسام فدخل عليه
حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كباراً . فقرأ الرقعة
فاذا المبرد قد أهدى إليه كتاب الروضة . وكان ابنه
على حاضرأ . قال : فرمى بالجزء الأول ، يعنى إليه
وقال له : انظر يا بنى ، هذا أهداه إلينا أبو العباس
المبرد . فأخذ ينظر فيه . وكان بين يديه دواة . فشغل
أبو جعفر بحديثنا فأخذ على الدواة ووقع على ظهر الجزء
شيئاً وتركه وقام . فلما انصرف قال أبو جعفر : أرونى
أى شئ قد وقع هذا المشئوم ، فاذا هو :

لو برا الله المبرد من جحيم يتوقد
كان فى الروضة حقاً من جميع الناس أبرد

ويقول ابن الأنبارى : قال أبو العباس بن عمارة :
صحف محمد بن يزيد المبرد فى كتاب الروضة فى قوله
« حبيب بن خدره » فقال « جدرة » ، وفى « ربعى بن
خراش » فقال « حراش » .

(٢٠) الرياحين المونقة - (٢١) الزيادة المنزعة من
كتاب سيبويه - (٢٢) شرح شواهد كتاب سيبويه -
(٢٣) شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها - (٢٤)
صفات الله جل وعلا « معانى صفات الله جل وعلا » -
(٢٥) ضرورة الشعر - (٢٦) طبقات النحويين

البصريين وأخبارهم - (٢٧) العبارة عن أسماء الله تعالى -
(٢٨) العروض - (٢٩) الفاضل والمفضول - (٣٠)
فقر من كتاب سيبويه - (٣١) قحطان وعدنان (نسب
عدنان وقحطان) - (٣٢) قواعد الشعر - (٣٣)
القوافى - (٣٤) ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه فى
القرآن . طبع فى مصر بالمطبعة السلفية بتحقيق الأستاذ
عبد العزيز الميمنى - (٣٥) المدخل إلى كتاب سيبويه -
(٣٦) المدخل فى النحو - (٣٧) المذكر والمؤنث -
(٣٨) معانى صفات الله جل اسمه - (٣٩) معانى
القرآن ، ويسمى : الكتاب التام . وفيه يقول صاحب
تاريخ بغداد : ما رأيت أحسن حديثاً من المبرد فى معانى
القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم - (٤٠) معنى كتاب
الأوسط للأخفش - (٤١) معنى كتاب سيبويه -
(٤٢) المقتضب . وفيه يقول ابن الأنبارى : وصنف
كتباً كثيرة ومن أكبرها كتاب المقتضب وهو نفيس
إلا أنه قلماً يشتهر به أو ينتفع به . قال أبو على :
نظرت فى كتاب « المقتضب » فما انتفعت منه بشئ
إلا بمسألة واحدة « وهى وقوع إذا جواباً للشرط فى
قوله تعالى « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم
يقنطون » . وكان السر فى عدم الانتفاع به أن أبا العباس
لما صنف هذا الكتاب أخذ عنه ابن الراوندى المشهور
بالزندقة وفساد الاعتقاد وأخذ عنه الناس من ابن الراوندى
وكتبوه منه فكأنه عاد عليه شؤمه فلا يكاد ينتفع به -
(٤٣) المقصور والممدود - (٤٤) المادح والمقابع -
(٤٥) الناطق - (٤٦) الوشى .

هذا ما ذكره الذين أرخوا للمبرد . ولعل بعد هذا
الذى ذكروه شيئاً آخر ، ثم إن هذا الذى ذكروه لم يصلنا
كله ولا زلنا نضل أكثره ، والكتاب الخالد للمبرد
والذى خلد به اسمه ، هو :

كتاب الكامل :

ويصف أبو العباس المبرد هذا الكتاب في تقديمه له فيقول : هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً .

فالكتاب بهذا التقديم الذي قدمه به مؤلفه يعدُّ — كما قلت لك قبل — من تلك الكتب التي مهدت للعمل المعجمي . غير أن المبرد لم يشر في تقديمه إلى ما ضمنه كتابه هذا من فوائد تاريخية ، أو فاهها كلامه عن الخوارج ، هذا الكلام الذي يضم حقائق يكاد كتاب الكامل يكون مرجعها .

وبعد فثمة شريك في هذا الكتاب للمبرد هو أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش (٣١٥ هـ) وهذا الشريك شارك في اثنتين : أولاهما أنه روى هذا الكتاب عن المبرد .

يقول ابن خير الاشبيلي في فهرسه الذي جمع فيه أسانيد ما رواه من الكتب ، قال : كتاب الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ، حدثني به أبو محمد بن عتّاب عن أبي عمر بن عبد البر عن أبي عثمان سعيد بن عثمان النحوي عن أبي عثمان سعيد بن جابر . وقال أبو محمد بن عتّاب . وحدثني به أبي رحمه الله قال : حدثني به أبو مطرف عبد الرحمن ابن مروان القنازعي عن أبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية عن أبي عثمان سعيد بن جابر عن الأخفش عن المبرد .

وتزيد العبارة التي في صدر كتاب الكامل شيئاً على هذا نكاد نحس منه أن الأخفش كان له شيء في جمع الكتاب وتبويبه ، إذ تقول العبارة : « حدثنا أبو بكر

محمد بن عمر بن عبد العزيز قال حدثنا أبو عثمان سعيد ابن جابر قال حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش قراءة عليه قال قرئ لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المبرد » .

فالأخفش يكاد يصرح في قوله « قرئ لي هذا الكتاب » بأنه سوى الكتاب ثم قرأه على المبرد .

وثانية المشاركتين تكاد توضح الأولى إذ الكتاب كما يضم كلاماً منسوباً إلى المبرد يضم في عقبه أو في خلاله كلاماً منسوباً إلى الأخفش .

خذ مثلاً لذلك : فالمبرد يمضي في حديثه بعد التقديم يقول :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار في كلام جرى : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . الفزع في كلام العرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذعر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ ، من ذلك قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع
كان الصراخ له قرع الظنايب

يقول : إذا ما أتانا مستغيث كانت إغاثته الجذ في نصرته . يقال : قرع لذلك الأمر ظنوبه ، إذا جد فيه ولم يفتّر ، ويشق من هذا المعنى أن يقع فزع في معنى أغاث ، كما قال الكلجة اليربوعي » .

وهنا يدخل أبو الحسن الأخفش في الحديث فيقول :

قال أبو الحسن : الكلجة لقبه ، واسمه هبيرة ، وهو من بني عرين بن يربوع . والنسب إليه عريني ، وكثير من الناس يقول عرني ، ولا يدرى . وعرينة من اليمن ، قال جرير يهجو عرين بن يربوع :

عرين من عرينة ليس منّا
برئت إلى عرينة من عرين

ثم يتصل حديث المبرد فيذكر بيت الكلاجة
اليربوعى :

فقلت لكأس أجمعها فإنما

حالت الكتيب من زرود لأفزعاً

يقول : لأغيث . وكأس : اسم جارية . وإنما
أمرها بإلجام فرسه ليغيث . والظنبوب : « مقدم عظم
الساق » .

ويتكرر هذا فى مواضع كثيرة من الكتاب ،
يصدر ما لأبى العباس المبرد بكلمة « قال أبو العباس »
كما يصدر ما لأبى الحسن الأخفش بكلمة « قال
أبو الحسن » .

والكتاب يفقد المقدمة المفصلة التى اعتدنا مثلها
عن مؤلفين عاصروا المبرد ، إذ المقدمة التى بين أيدينا
وهى أسطر قليلة - سقت لك أكثرها - لا تلقى ضوءاً
على منهج الكتاب وتبويبه ، ولعل هذه تضيف دليلاً إلى
أن الكتاب من جمع الأخفش .

وبعد هذه المقدمة القصيرة نقرأ أحاديث متفرقة
لا صلة بينها ، وكان هذا منهج العصر فى الأكثر ، أولها
ذلك الحديث الذى سقته شاهداً على مشاركة الأخفش
للمبرد فى الكتاب ، وبعد هذا الحديث كلمة أبى بكر
فى مرضه ثم عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر ، ثم أول
خطبة خطبها عمر . ثم رسالة عمر فى القضاء إلى أبى
موسى ، ثم كتاب عثمان إلى على بن أبى طالب حين
أحيط به ، ثم معاتبه عثمان علياً ، ثم كلمة على حين
بلغه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله
حسان بن حسان . وحين ينتهى الجامع من هذا يبدأ فى
تبويب الكتاب أبواباً لا ينتظمها غرض واحد . من أجل
ذلك اجتزى فيها بذكر كلمة « باب » اللهم إلا فى
أماكن قليلة حيث يفهرس الأبواب ويحدد غرضها
وذلك فى مواضع أربعة :

أولها عند الكلام على الخوارج (الباب ٤٨)
فقليل : باب من أخبار الخوارج . والغريب أن الباب
الذى تلا هذا الباب (باب ٤٩) ذكر غير متميز مع
أنه متصل بأخبار الخوارج مكمل للباب الذى قبله .

وثانى هذه المواضع الباب المتم الخمسين ، فقد
ذكر هو الآخر متميزاً باسم « هذا باب النسب إلى
المضاف » . والغريب أن هذا الباب هو الآخر متصل
بأخبار الخوارج وليس فيه من الكلام على النسب إلا
ثلاث صفحات فى أوله وسائره فى أخبار الخوارج
ويبلغ نحواً من مائة وعشرين صفحة .

وثالث هذه المواضع هو الباب الواحد والخمسون .
فقد عنون متميزاً باسم « باب فى اختصار الخطب
والتحميد والمواعظ » وأنت لا تقرأ فيه شيئاً متصل
بالعنوان إلا صفحات قليلة وسائر صفحاته التى تربي
على المائة فى أغراض أخرى .

ورابع هذه المواضع الباب الثالث والخمسون
وموضوعه « باب ذكر الأذواء من اليمن فى الإسلام »
وهذا الباب هو الآخر لا يضم كلاماً متصل بعنوانه إلا
كلاماً قليلاً لا يعدو الصفحتين وسائره كلمات مختلفة
فى أغراض متباينة .

وهذا التبويب فى جملمته نكاد نرده إلى مجالس
انتظمته أو أزمنة احتوته أو أمكنة تضمنته . ونكاد
نشك فى هذه الإضافات التى أضيفت لهذه الأبواب
الأربعة مع عناوينها ونكاد نمل أنها مزيدة على الأصل .

وبعد هذا فالكتاب يضم مادة غزيرة مختلفة تقع على
الكثير من الأدب واللغة والتاريخ والنحو ، وأنت مع
هذا كله لا تحس مللاً لأنك لا تقرأ أدباً متصلاً ولا لغة
متصلة ولا تاريخاً متصلاً ولا نحواً متصلاً ، نسوق لك
على سبيل المثال هذا الباب الأخير من الكتاب وهو
الباب الرابع والخمسون . وقد ميز شبه تمييز فليل فيه :
« هذا باب قد تقدم ذكرنا إياه ووعدنا استقصاءه »

وهو يعنى الحديث عن الحيوان من حيث تعريفه وتنكيره وتذكيره وتأنيثه . وسوف تجد أن الحديث عن هذا سوف لا يستوعب كثيراً ، كما يعنى خطباً ومواعظ ورسائل أرجأ ذكرها أولاً ، يقول :

اعلم أن كل شيء من الحيوان كان مما يخبر الناس عنه كما يخبرون عن أنفسهم ومما يقتونه ويتخذونه فبهم حاجة إلى الفصل بين معرفته ونكرته ومذكره وهؤنثه ، تقول : جاءنى رجل ، إذا لم تدر من هو بعينه ، أو دريت فلم ترد أن تبين ، ثم تعرفه لصاحبك إذا أردت ذلك إما بألف ولأم ، وإما باسم معروف أو إضافة أو غير ذلك . وكذلك يفصل الناس بين الخيل بأسماء أو نعوت يعرفون بها بعضها من بعض ، وكذلك الشاء والكلاب والإبل ، ولولا تمييز بعضها من بعض لم يستقيم الإخبار عنها والاختصاص بما أريد منها ، فإذا كان الشيء ليس مما يتخذونه لم يحتاجوا إلى التمييز بين بعضه وبعض ، يقول الرجل : رأيت الأسد . فليس يعنى أسداً بعينه ولكن يريد الواحد من الجنس الذى قد عرفت ، وكذلك الذئب والعقرب والحية وما أشبه ذلك ، ألا ترى أن ابن عرس وسام أبرص وأم حنين وأبا الحارث وأبا الحصين معارف ، لا على أن تميز بعضها من بعض ولكن تعريف الجنس ، وقولك ابن مخاض وابن لبون وابن ماء ، نكرات لأن هذا مما يتخذها الناس ، وابن ماء إنما هو مضاف إلى الماء الذى يعرف ، فإذا أردت التعريف من هذه لهذه النكرات أدخلت فيما أضيفت إليه الألف واللام أو لقبها ألقاباً تعرف بها كزيد وعمرو .

واعلم أن كل جمع مؤنث ، لأنك تريد معنى جماعة ولا تذكر من ذلك إلا ما كان فعله يجرى بالواو والنون فى الجمع ، وذلك كل ما يعقل ، تقول : مسلم ومسلمون ، كما تقول : قوم يسلمون ، وتقول للجمال : هى تسير ، وهن يسرن ، كما تقول للمؤنث ، لأن أفعالها على ذلك . وكذلك الموات . قال الله عز

وجل فى الأصنام (رب انهن أضللان كثيراً من الناس) والواحد مذكر . وقال المفسرون فى قوله : (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) قالوا : الموات ، فكل ما خرج عما يعقل فجمعه بالتأنيث وفعله عليه لا يكون إلا ذلك ، إلا ما كان من باب المنقوص ، نحو سنين وعزير . وليس هذا موضعه . وجملته أنه لا يكون إلا مؤنثاً ، فلهذا كان يقع على بعض هذا الضرب الاسم المؤنث فيجمع الذكر والأنثى ، فمن ذلك قولهم : عقرب ، فهو اسم مؤنث ، إلا أنك ان عرفت الذكر قلت : هذا عقرب ، وكذلك الحية ، تقول للأنثى : هذه حية ، وللذكر : هذا حية . قال جرير :

إن الحفافيث منكم يا بنى لجأ

يطرقن حيث يصول الحية الذكر

قال الأخفش : الحفافيث : ضرب من الحيات يكون صغير الجرم ينتفخ ويعظم وينفخ نفخاً شديداً لا غائلة له .

وتقول : هذا بطة للذكر ، وهذه بطة للأنثى ، وهذا دجاجة ، وهذه دجاجة . قال جرير :

لما تذكرت بالديرين أرقى

صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

يريد زقاء الديوك . فالاسم الذى يجمعهما : دجاجة للذكر والأنثى ، ثم يخص الذكر بأن يقال : ديك . وكذلك تقول : هذا بقرة ، لها جميعاً ، وهذا حبارى ، ثم يخص الذكر . فتقول : ثور ، وتقول للذكر من الحبارى : خرب . فعلى هذا يجرى هذا الباب . وكل ما لم نذكره فهذا سبيله .

وقد كنا أرجأنا أشياء ذكرنا أنا سندكرها فى آخر هذا الكتاب . منها خطب ومواعظ ورسائل . ونحن ذاكرون ما تهيا من ذلك ان شاء الله :

قال الأصمعى فيما بلغنى : خطبنا أعرابى بالبادية فحمد الله واستغفره ووحده وصلى على نبيه فبلغ فى

إيجاز ثم قال : أيها الناس إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لممركم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم . في الدنيا كنتم ولغيرها خلقتكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . والمصلي عليه رسول الله والمدعو له الخليفة والأمير جعفر بن سليمان .

وحدث في بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز قال في خطبة له : أيها الناس إنما الدنيا أمل مخترم ، وأجل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسر إلى الموت ليس فيه تعريج . فرحم الله امرأً فكر في أمره . ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه ، ونور قلبه .

أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل .

ويروى أن رجلاً معروفاً — ذهب اسمه غنى — قال : أتيت ابن عمر فقلت : أتجب الجنة لعامل بكل الخيرات وهو مشرك ؟ فقال : لا . فقلت له : أتجب النار لعامل بالشر كله وهو موحد ؟ قال : عش ولا تغتر .

قال : وأتيت ابن عباس فسألته فأجابني بمثل جوابه سواء ، وقال : عش ولا تغتر .

قال : وحدثني بهذا الحديث القاضي — يعنى اسماعيل بن اسحاق —

وذكر العتيبي ، أحسبه عن أبيه عن هشام بن صالح عن سعد القصر ، قال : خطب الناس بالموسم عتبة في سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسيء الوزر . فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا ، ورب متمن حثفه في أمينته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم ، وإياكم ولو ، فقد

أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، فاسألوا الله أن يعين كلا على كل . فنق به أعرابي من مؤخر المسجد فقال : أيها الخليفة . فقال : لستُ به ولم تبعد . قال : فيا أخاه . قال : قد أسمعت فقل . فقال : والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا ، فإن كان الإحسان لكم فما أحقكم باستئامه ، وإن كان لنا فما أحقكم بمكافأتنا . رجل من بني عامر يمت إليكم بالعمومة ، ويختص إليكم بالخوولة ، وقد وطئه زمان وكثرة عيال ، وفيه أجر وعنده شكر : فقال عتبة : أستعبد بالله منك وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بغناك فليت اسراعنا إليك يقوم باباطنا عنك .

قال : وخطب الناس معاوية بن أبي سفيان فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إني من زرع قد استحصد ، ولن يأتيكم بعدى إلا من أناخير منه ، كما لم يكن قبلي إلا من هو خير مني .

فلما مات دخل الناس على يزيد يعزونه بأبيه ويهتونه بالخلافة ، فجعلوا يقولون ، حتى دخل رجل من ثقيف فقال : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، إنك قد فجعت بخير الآباء وأعطيت جميع الأشياء ، فاصبر على الرزية واحمد الله على حسن العطية ، فلا أعطى أحدكم أعطيت ، ولارزى كما رزئت . فقام ابن همام الساولي فأنشده شعراً كأنما فاضه الثقيف ، فقال :

اصبر يزيد فقد فارقت ذامقة

واشكر بلاء الذي بالملك أصفكا

أصبحت تملك هذا الخلق كلهم

فأنت ترعاهم والله يرعاك

ما إن رزى أحد في الناس نعلمه

كما رزئت ولا عقي كعقباكا

وفي معاوية الباقي لنا خلف

إذا نعت ولا نسمع بمنعكا

ويروى أن خالد ابن صفوان دخل على يزيد ابن المهلب وهو يتغدى فقال : ادن فكل يا أبا صفوان . فقال : أصلح الله الأمير لقد أكلت أكلة لست ناسيها . قال : وما أكلت ؟ قال : أتيت ضيعتي لإبان الغراس وأوان العمارة فجأت فيها جولة حتى إذا صعدت الشمس وأزمنت بالركود ملت إلى غرفة لي هفافة في حديقة قد فتحت أبوابها ونضحت بالماء جوانبها وفرشت أرضها بأنواع الرياحين من بين ضيمران نافح ، وسمسق فائح ، وأقحوان زاهر ، وورد ناضر ، ثم أتيت بخبز أرز كأنه قطع العقيق ، وسمك بناني بيض البطون زرق العيون سود المتون عراض السرر غلاظ القصر ، ودقة وخأول ومُرى وبُقُول : ثم أتيت برطب أصفر صاف غير أكدر لم تبتذله الأيدي ولم يهشمه كيل المكاييل ، فأكلت هذا ثم هذا . فقال يزيد : يا بن صفوان لألف جريب من كلامك مزروع خير من ألف جريب مذكوع .

ونحن ذاكرون الرسائل بين أمير المؤمنين المنصور وبين محمد بن عبدالله بن حسن العلوى كما وعدنا في أول الكتاب ونختصر ما يجوز ذكره منه ونمسك عن الباقي فقد قيل : الراوية أحد الشائمين .

قال : لما خرج محمد بن عبدالله على المنصور كتب إليه المنصور : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد (فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أومنك على نفسك

وولدتك وإخوتك ومن بايعك وتابعتك وجميع شيعتك ، وأن أعطيتك ألف ألف درهم وأنزلت من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق ما في سبني من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه . فان شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

فكتب إليه محمد بن عبدالله : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبدالله ابن محمد أما بعد (طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ، لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، وقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا ، وخطبتموه بفضلنا ، وإن أبانا علياً عليه السلام كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قدمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا ، وأنا بنو أم رسول الله فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم فأنا أوسط بني هاشم نسباً ، وخيرهم أمماً وأباً ، لم تلدنني العجم ولم تُعرق في أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته فاطمة أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في

الإسلام الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليّاً مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار ، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً ، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن أوئمتك على نفسك وولدتك ، وكل ما أصبته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهداً ، فقد علمت ما يلزمك في ذلك ، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى لقبول الأمان . فأما أمانك الذي عرضت على فأى الأمانات هو ، أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم ؟ ، والسلام .

فكتب إليه المنصور : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفأة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب) ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أنى ، وكفر اثنان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لأمته بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن الله لم يهد أحداً من ولدها للإسلام ، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غداً ، ولكن الله أبى ذلك فقال (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) فأما ما ذكرت من فاطمة

بنت أسد أم علي بن أبي طالب ، وفاطمة أم الحسن ، وأن هاشماً ولد عليّاً مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله ، لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ، ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة . وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولكنكم بنو ابنته ولها لقاربة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها . ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضاها سرّاً ودفعها ليلاً ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله فأمر بالصلاة غيره ، ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم ، ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها . بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ، ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم ، وأسلم في يديه شيعة وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه . فأما قولك : إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً . فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار ويسترده فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . وأما قولك : إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخبرهم أمّاً وأباً ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرأ وأصلاً وفصلاً . فخرت على إبراهيم بن رسول الله ، وعلى والد ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً ، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله أفضل من علي بن الحسين ، وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من

ثم مضى المريد ذكر شيئاً من هذه الرسائل على وفق ما رسم ، إلى أن يقول :
هذا الكتاب قد وفيناه جميع حقوقه ، ووفينا بجميع شروطه ، إلا ما أذهل عنه النسيان ، فانه قلما يخفى من ذلك ، ونحن خاتموا بأشعار طريفة ، وآخر ذلك نختم به آيات من كتاب الله عز وجل بالتوقيف على معانيها إن شاء الله .

قال الشاعر :

اذكر مجالس من بنى أسد
بعدوا وحن إليهم القلب
الشرق منزلنا ومنزلهم
غرب وأنى الشرق والغرب
من كل أبيض جبل زينته
مسك أحم وصارم غضب
وقال آخر :

حياة أبى العوام زين لقومه
لكل امرئ قاس الأمور وجربا
ونعتب أحياناً عليه ولو مضى
لكُنّا على الباقي من الناس أعتبا
وقال مسلم :

حياتك يا بن سعدان بن يحيى
حياة للمكارم والمعالى
جابت لك الثناء فجاء عفواً
ونفس الشكر مطلقاً العقال
وترجعنى إليك وان نأت بي
ديارى عنك تجربة الرجال
وقيل فى المثل : المبالغة فى النصيحة تقع بك على عظيم الظنة .
وأنشدنى العباس بن الفرج الرياشي :
وكم سقتُ فى آثاركم من نصيحة
وقد يستفيد الظنة المتنصح

جداك حسن بن حسن ، ثم ابنه محمد بن على خير من أبائك ، وجدته أم ولد ، ثم ابنه جعفر وهو خير منك .
ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكيم وأعطاها عهده وميثاقه على الرضى بما حكما به ، فاجتمعا على خلعه ، ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقباب بنين . أوطى كالسى المحلوب إلى الشام . ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل . حتى خرجنا عليهم فأدركنا بئاركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبيننا فضله وأشدنا بذكره ، فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل على أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتنى أبوك بالدماء ، ولقد علمت أن ماثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه ، وتوفى رسول الله وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينهلها إلا ولده ، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القدم والحديث ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عمك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ، فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الإسلام والعباس يعمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر فقد مناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر ، ورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزناً شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

وأنشدني الرياشي :

إذا الأمر أغنى عنك حينئذيه فاجتنب

معررة أمر أنت عنه بمعزل

وقال العتاني :

لا ترج رجعة مذنب

خلط احتجاجا باعتذار

وقال أيضاً :

وفيت كل خليل ودني ثمتنا

إلا المؤمل دولاني وأيسامي

إلى أن يقول :

وقيل للعتاني : ما أقرب البلاغة ؟ ، قال : أن

لا يؤتى السامع من سوء لفهام القائل ، ولا يؤتى القائل

من سوء فهم السامع . وقال ابن يسير :

قدّر لرجلك قبل الخطو منزلها

فمن علا زلقا عن غرة زلقا

وكان يقال : اصمت لتفهم ، واذكر لتعلم ،

وقل لتذلق .

ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في

مجازها النحويون . قال الله عز وجل (إنما ذلكم الشيطان

يخوف أوليائه) مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف

ومعناه : يخوفكم من أوليائه . وفي القرآن : (فن شهد

منكم الشهر فليصمه) ، والشهر لا يغيب عنه أحد ،

ومجاز الآية : فن كان منكم شاهداً بلده في الشهر فليصمه ،

والتقدير : فن شهد منكم ، أي فن كان شاهداً في

شهر رمضان فليصمه . نصب الظرف لا نصب

المفعول به . وفي القرآن في مخاطبة فرعون : (فاليوم

ننجيك بيدنك لتكون لمن خلفك آية) فليس معنى

ننجيك نخلصك ، ولكن نلقيك على نجوة من الأرض

بيدنك بدرعك ، يدل على ذلك (لتكون لمن خلفك

آية) وفي القرآن : (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا

بالله ربكم) ، فالوقف ، يخرجون الرسول وإياكم ،
أي : ويخرجونكم لأن تؤمنوا بالله ربكم .

ثم يحتم الكتاب بقوله « وصلى الله على محمد خاتم
النبيين ونستغفر الله مما قلناه من عمد وقصد وزلل وخلل »

* * *

هذا هو كتاب الكامل صورناه لك لتعرف أن

ابن خلدون لم يبعد عن الحق حين قال : سمعنا من

شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأزمانه

أربعة دواوين ، وهي : كتاب الكامل للمبرد وأدب

الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ،

وكتاب النوادر لأبي علي القالي ، وما سوى هذه

الأربعة فتبع لها وفروع منها .

فهذا حكم الشيوخ القارئ . يجمعون على هذه

الأربعة ، ويجمعون على جعل كتاب الكامل على رأسها .

* * *

وكتاب الكامل للمبرد قد طبع طبعة أولى في

ليبسك سنة ١٨٦٤ م ، ثم طبع في الآستانة في نحو سنة

١٨٧٠ م ، ثم في مصر في نحو سنة ١٩٠٠ م :

وحين وكل إلى المرحوم الأستاذ سيد بن علي

المرصفي مطالعة هذا الكتاب في الأزهر رأى أن يضيف

إليه شرحاً فوضع كتابه « رغبة الآمل من كتاب

الكامل » وجعله في أجزاء ثمانية ضمنه شروحاً كثيرة

غزيرة .

وقد طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٣٤٦ هـ -

١٩٢٧ م .

ويذكر حاجي خليفه في كتابه كشف الظنون أن

ثمة شرحاً لكتاب الكامل باسم محمد بن يوسف المازني

السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . غير أن هذا الشرح

لم يقع لنا .